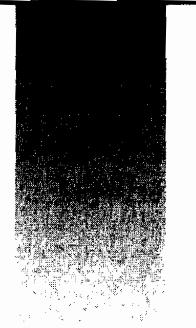


مكانة الهمداني
بين الجغرافيين العرب القدامى

أ.د. شاكر خصباك

قسم الجغرافيا، كلية الآداب
والعلوم الإنسانية - جامعة صنعاء

يعتقد الكثيرون من الجغرافيين العرب المحدثين أن الجغرافية العربية القديمة لم تقدم الكثير للجغرافية العالمية وأنها أكثر صلةً بالتاريخ منها بالجغرافيا. لذلك لم تحظ باهتمام كبير من قبلهم. والواقع أن المستشرقين الغربيين كانوا أكثر اهتماماً بها، ونحن ندين لهم بإعادة النظر في التراث الجغرافي العربي الإسلامي والبحث عن مخطوطاته في مكتباتنا القديمة وإعادة نشره. ولعل أعظمهم خدمة لذلك التراث هو المستشرق الهولندي (دي غويا) الذي تولى تحقيق ونشر العديد من أمهات الكتب الجغرافية العربية في سلسلة أطلق عليها اسم "سلسلة المكتبة الجغرافية العربية". وتولى مستشرقون آخرون تقديم دراسات مهمة عن كبار الجغرافيين العرب القدماء من أمثال (رينو وبارتولر) و(كرامرس) و(نالينو). ولعل أهم كتاب عني بدراسة التراث الجغرافي العربي هو كتاب المستشرق الروسي (كراتشكوفسكي) المعنون " تاريخ الأدب الجغرافي العربي" الذي قدم دراسة ضافية عن طبيعة التراث الجغرافي العربي وإسهامه في تاريخ الجغرافية العالمي.

ومما لا شك فيه أن أبا محمد الحسن بن أحمد الهمداني قد أسهم إسهاماً قيماً في تراثنا العربي الجغرافي. ولفهم قيمة إسهامه في هذا التراث لا بد لنا من الكشف عن طبيعة الجغرافية العربية القديمة والمواضيع التي طرقتها.

ومن المعلوم أن الجغرافية العربية القديمة قد تأثرت في بداية نشأتها بالجغرافية اليونانية ولاسيما ما يتعلق بالفلك وبنظريات الجغرافية للطبيعة. ولقد حقق اليونانيون في عصرهم الفكري الذهبي، فيما بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي، تقدماً عظيماً في ميدان الفلك والجغرافية الطبيعية لاسيما في حقل علم المناخ، وكانت أعظم الحقائق التي توصلوا إليها هي أن الأرض كروية وأنها معلقة في السماء.

وكان ذلك فتحاً عظيماً في ميدان علم الفلك، وصارت نظرية كروية الأرض من النظريات التي أجمع عليها الفلاسفة اليونان والرومان قاطبة. ولكنهم اعتقدوا أن الأرض ثابتة في السماء وأن الشمس تدور حولها. ومع ذلك فقد وجد من بينهم من قال إن الشمس هي الثابتة في السماء وأن الأرض هي التي تدور حولها، وهو الفيلسوف (أريستارخس الاسكندري) في القرن الثالث قبل الميلاد. ولكن لم يأخذ برأيه هذا علماء الفلك الآخرون إلى أن تبنى نظريته العالم الفلكي الإيطالي (غاليلو) في القرن السادس عشر الميلادي.

كذلك تطور علم المناخ تطوراً عظيماً على أيدي الفلاسفة اليونانيين ووضعوا أهم أسس علم المناخ ولاسيما ما يتعلق بدرجات الحرارة ومصادرها وتوزيعها على الأرض وربطوا توزيعها بخطوط الطول والعرض التي قاموا بابتكارها. ومازلنا حتى اليوم نأخذ بأسس علم المناخ اليوناني.

ولقد تأثر العلماء العرب بأفكار اليونانيين منذ بداية عصر الترجمة في أواسط القرن الثالث الهجري حيث ترجمت إلى اللغة العربية أمهات الكتب اليونانية في الفلسفة والفلك والطب. وكانت أعظم الكتب تأثيراً في ميدان الجغرافيا والفلك كتابا (بطليموس الاسكندري) "المجسطي" و"الجغرافيا" (القرن الثاني الميلادي).

إن أهمية تبني العرب المسلمون للأفكار الفلكية اليونانية وبعثها من جديد هو ما اتخذته الكنيسة تجاهها من موقف صارم أثناء العصور الوسطى. فقد حرمتها تحريماً كاملاً، وتبنت الأفكار القديمة عن الأرض القائلة بأن الأرض لوحاً مسطحاً يطفو فوق المياه، في تلك الفترة كان الجغرافيون العرب والمسلمون يبشرون بالنظريات اليونانية عن الأرض وهي أنها جسم كروي معلق في السماء (ولكنهم لم يعترفوا بأنها متحركة، أو أنها تدور حول الشمس)، ولم

يكن هناك من الحكام أو رجال الدين من يعترض على أفكارهم. وكان العلماء الفلكيون يختمون كلامهم عن الأرض بقولهم " "هذا ما علمناه والله أعلم".

هذا ما يتعلق بمعارف الجغرافية الفلكية. أما ما يتعلق بحقل المعارف الجغرافية عن البلدان، والذي يشكل لب الجغرافية الوصفية، فقد أضاف الجغرافيون العرب إليه إضافات واسعة.

والواقع أن كلمة "جغرافيا" التي ابتكرها العالم الجغرافي اليوناني (إراتوستيني) في القرن الثالث قبل الميلاد، تتألف من مقطعين هما GEO وتعني "الأرض" و "RAPHIA" وتعني وصف. فجوهر علم الجغرافيا قديماً إذن هو وصف أقطار الأرض أو بلدان الأرض. ولقد تطور هذا العلم على أيدي العلماء اليونانيين من مجرد وصف عام لبلدان الأرض إلى التحديد العلمي لمواقع الأرض من مدن وأنهار وجبال وأودية على أساس رياضي مستند إلى خطوط الطول والعرض.

ويتمثل كتاب (بطليموس الاسكندري) المعنون "الجغرافيا" قمّة التطور في الجغرافية الرياضية. فقد قسم الأرض المعمورة إلى سبعة أقاليم تستند إلى خطوط العرض، وحدد مواقع الأرض من مدن وجبال وأنهار ضمن هذه الأقاليم. ومع أن الجغرافيين العرب القدامى قد تأثروا بكتاب (بطليموس) هذا لكنهم لم يتبعوا منهجه الرياضي في كتاباتهم عن بلدان الأرض عدا الشريف الأدريسي في كتابه المشهور "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. (القرن السادس الهجري).

ومنذ منتصف القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بدأ الجغرافيون العرب يهتمون بالحقل الوصفي من الجغرافية ويؤلفون كتباً في هذا الميدان. وقد أطلق على كتبهم اسم "المصنفات البلدانية" واتخذت عناوين متعددة منها "المسالك والممالك" والأقاليم و" كتاب البلدان" ولعل طليعة تلك الكتب هو كتاب "المسالك والممالك" لأبي القاسم عبدالله بن خرداذبة، (منتصف القرن الثالث الهجري).

إن مصنفات الجغرافية البلدانية أو كتب المسالك والممالك بأنواعها المختلفة تمثل لب الجغرافية العربية. وقد أصاب العلامة (كراتشكوفسكي) كبد الحقيقة بقوله إن مصنفات الجغرافية الوصفية هي التي تسترعي النظر بغزارة مادتها وأن منهجها هو الذي يغلب على الأدب الجغرافي العربي ويسبغ عليه طابعه المميز. ولا تشمل تلك المصنفات ذات المنهج الوصفي كتب الجغرافية

الإقليمية المعروفة بل تضم أيضاً طائفة عريضة من المؤلفات التي تتحدث عن البلدان فهي تشتمل على المعاجم الجغرافية وكتب الموسوعات التي تخصص عادة جزءاً منها للجغرافية من أمثال موسوعة القلقشندى وموسوعة النويري وتشتمل كذلك على كتب الرحلات من أمثال رحلة أبن بطوطة ورحلة أبن جبير وغيرهما. ومما لا ريب فيه أن تلك المؤلفات كانت تخضع عموماً لنمط الكتابة العربية الذي ساد مختلف حقول المعرفة في ذلك العهد.

فلم يكن التخصص مثلاً مفهوماً بالمعنى الحديث ولذلك فكثيراً منها كان مؤلفوها ليسوا بجغرافيين أصلاً. وبالتالي فلا يمكن أن نتوقع منهم أن يخضعوا لقواعد الكتابة الجغرافية بمفهومها الحديث وربما كان ذلك هو العامل الأول الذي جعل البعض منها يشكو من عيوب في منهجه الجغرافي. فأسلوب الجغرافيين البلدانيين العرب كان ينحو إلى الوصف الجامع الشامل بدلاً من العرض المفصل العميق للمناطق المدروسة على أساس الملاحظة المباشرة. غير أن هذا النقد بالذات لا ينطبق في الحقيقة على المناطق التي خبرها الجغرافيون خبرة مباشرة، وعلى نحو الخصوص بلدانهم. والواقع أن الجغرافيين العرب قد اتبعوا منذ البداية الأسلوب الصحيح في كتابة الجغرافية البلدانية وهو أسلوب المشاهدة الشخصية هذا الأسلوب الذي اتبعه رواد الجغرافية الحديثة من أمثال (همبولدت) و(راتزل) و(فيدال ديلايلاش) وغيرهم. فقد كان كبار الجغرافيين البلدانيين العرب من الجوّالين، وقد زاروا معظم البلدان التي كتبوا عنها لاسيما الجغرافيين المبكرين من أمثال اليعقوبي والأصطخري وأبن حوقل والمقدسي والهمداني والادريسي وغيرهم.

ولقد كان الهمداني من بين أولئك الجغرافيين البلدانيين المذكورين. والهمداني (الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف) قد ولد في صنعاء في أواخر القرن الثالث الهجري وتوفي في عام334هجري أي أنه عاش فيما بين أواخر القرن الثالث الهجري ومنتصف القرن الرابع الهجري (أواخر القرن التاسع الميلادي وأوائل القرن العاشر الميلادي). وقد اشتهر بكتابه "صفة جزيرة العرب". ومن الجدير بالذكر أن أخر طبعة لهذا الكتاب التي نشرت في صنعاء كانت بإشراف العلامة اليمني المرحوم محمد بن علي الأكوع. وقد بذل جهداً عظيماً في تحقيق الكتاب وقد أكسبه قيمة كبيرة بما ألحق به من شروح مسهبة ومن تشكيل أسماء المواضع الواردة فيه ومن شروح عن القبائل المذكورة مما يدل على تضلعه.

وبالرغم من أن عنوان هذا الكتاب يوحي بأنه يتحدث عن جزيرة العرب عموماً فإنه في الواقع لم يخصص إلا جزءاً بسيطاً للحديث عن جزيرة العرب وكرس معظمه للحديث عن اليمن. ولا يتضمن الكلام عن جزيرة العرب معلومات مهمة أو إضافة أصيلة بل كان مجرد نقل عن المراجع الأخرى. كما ورد في الكتاب معلومات فلكية وبعض المعلومات في الجغرافية الطبيعية، وهي في الواقع معلومات منقولة عن المراجع اليونانية. وهي تدل على إطلاع الهمداني على الكتابات الجغرافية اليونانية.

فكتاب الهمداني إذن ينتمي إلى مصنفات الجغرافية الإقليمية. ويضم معلومات من الدرجة الأولى عن اليمن في تلك الفترة من تاريخها (القرن الرابع الهجري) ولقد شهد بأهمية هذا الكتاب كبار المستشرقين فقد اعتبره المستشرق (اشبرنجر) أعظم ما أنتجه العرب في الجغرافية إلى جانب كتاب المقدسي المعروف باسم "أعظم التقاسيم في معرفة الأقاليم"، وهذه شهادة مهمة تصدر من عالم متضلع. إن مصنفات الجغرافية الإقليمية تكون على أنواع. فمنها ما يتحدث عن مناطق عامة كالحديث عن منطقة الشرق الأوسط مثلاً. ومنها ما يتحدث عن بلد معين أو جزء منه فيكون ضمن الجغرافية الإقليمية المحلية. ويمت كتاب الهمداني إلى النوع الأخير من الجغرافية الإقليمية. وتتناول كتب الجغرافية الإقليمية عادة الحديث عن المواضيع التالية:

1. الكلام عن الجوانب الطبوغرافية.
2. الكلام عن الجوانب الاقتصادية.
3. الكلام عن الجوانب البشرية.

ولو طبقنا هذه الأسس في الجغرافية الإقليمية على كتاب الهمداني لوجدناه يشتمل عليها بامتياز. ويمكن أن نستخلص منه المعلومات الجغرافية التالية عن اليمن.

أولاً: الجوانب الطبوغرافية

لقد قدم الهمداني مسحاً طبوغرافياً وافياً لليمن أزعم أنه لم يقم به أي جغرافي عربي أو يمني آخر حتى اليوم. وترجع أهمية هذا المسح إلى اعتماده على الخبرة الشخصية. وقد ساح الهمداني في البقاع التي تحدث عنها وسجّل لنا مشاهداته ولم ينقلها عن مرجع آخر. وقد اشتملت تلك المعلومات على الحديث

عن الجبال والأودية والسهول والعيون والينابيع وأنواع الصخور. وتكتسب بعض تلك المعلومات أهمية خاصة في حقل الجغرافيا التاريخية، إذ أن دراسة بعض تلك البقاع دراسة حديثة قد تطلعنا على ما حدث في اليمن من تطورات جيموفولوجية خلال الألف عام الماضية.

ثانياً: الجوانب الاقتصادية

تحدث الهمداني عن المواضع التي تميزت بإنتاجها الزراعي في اليمن وما اشتملت عليه من حاصلات زراعية. وتكتسب معلوماته هذه أهمية خاصة لأنها تكشف لنا عن إمكانات اليمن الزراعية ومن الممكن مقارنتها بالوضع الزراعي الحالي في تلك المواضع واستجلاء جوانب الخلل فيها لاسيما ونحن نعلم أن اليمن تميز في عهده القديم بنشاطه الزراعي مقارنة بالمناطق المجاورة مما دعا (الاسكندر المقدوني) إلى أن يطلق عليه في القرن الرابع قبل الميلاد اسم (اليمن السعيد).

ومن المعلومات الاقتصادية المهمة الأخرى التي اشتمل عليها الكتاب ما يتعلق بالثروة المعدنية التي حدد لنا مواضعها وأنواعها. ومن المعلوم أن هذا الجانب من النشاط الاقتصادي لليمن ما يزال يفتقر إلى الدراسات الحديثة وإلى المشاريع العملية لاستثمار تلك المعادن. إن أمثال هذه الكتابات القديمة يمكن أن تكون مرشداً نافعاً في هذا الحقل من الدراسة واشتمل الجانب الاقتصادي أيضاً على الحديث عن الثروة الحيوانية وأنواعها ومقاديرها وأهميتها في حياة الشعب اليمني في ذلك العصر.

وورد في الكتاب أيضاً معلومات عن طرق المواصلات التي تربط بين مختلف القرى والمدن اليمنية لاسيما النائية منها، فرسم بذلك خارطة للمواصلات في الريف اليمني، وأزعم أن هذه الخارطة ما تزال مفيدة حتى اليوم ولاسيما ما يخص المناطق الجبلية الوعرة النائية.

ثالثاً: الجوانب البشرية

لعل أعظم جوانب الكتاب أهمية هي المتعلقة بالجوانب البشرية وهذه المعلومات تشتمل على جانبين الأول ما يتعلق بمواطن الاستقرار والمستوطنات والثاني ما يتعلق بالسكان.

فأما ما يتعلق بموطن الاستقرار فقد ثبت لنا الهمداني بدقة عظيمة مواطن الاستقرار يومذاك ابتداءً من المدن الكبيرة إلى الصغيرة ثم إلى القرى وانتهاء بالعزب. ولاشك أن هذا الجزء من الكتاب يكتسب أهمية عظيمة من الناحية التاريخية فالكثير من تلك القرى والعزب الصغيرة قد اختفى اليوم والبعض منها قد تغير اسمه. لذلك يشكل هذا الجانب من الكتاب مرتعاً خصباً للدراسات في حقل الجغرافية التاريخية. فقد يستطيع الدارسون إيضاح أسباب قيام تلك المستوطنات في ذلك العصر وأسباب اندثارها اليوم ومدى إمكانية إعادة الحياة إليها. ومما لا ريب فيه أن الهمداني قد بذل جهوداً كبيرة في تتبع تلك المستوطنات ومواطن الاستقرار، واعتمد أساساً على تجواله الميداني. ولم يكن ناقلاً عن غيره من الجغرافيين المعاصرين له. واعتقد أن الجغرافيين المعاصرين له الذين كتبوا عن اليمن كانوا يعدّونه مصدراً رئيسياً لهم. فمعلومات الهمداني في هذا الحقل معلومات أصيلة، ومن الدرجة الأولى. ونحن في حاجة اليوم إلى العودة إليها والتدقيق فيها.

وأما الجانب الثاني المتعلق بالسكان فقد ركز الهمداني اهتمامه فيه على القبائل اليمنية وأصولها وتفرعاتها وتتبعها بإسهاب عظيم. وبناءً على تلك المعلومات يمكننا أن نتتبع خطوط هجرات تلك القبائل ومواضع استقرارها فضلاً عن معرفة أبرز رؤسائها وأهم أسرها. وأزعم أن المعلومات المذكورة في الكتاب عن القبائل تشكل معجماً في غاية الأهمية عن القبائل اليمنية القديمة. وتنعكس هذه المعلومات على القبائل اليمنية الحديثة.

ومن المعلومات المهمة التي وردت في كتاب الهمداني ما يتعلق بالكلام عن الآثار القديمة، فقد عنى عناية خاصة بتتبع القلاع القديمة ومواضع النقوش القديمة مما يشكل مصدراً مهماً لدراسة علماء الآثار.

وخلاصة القول إن المعلومات الجغرافية الإقليمية التي وردت في كتاب "صفة جزيرة العرب" للهمداني تشكل مصدراً ثرياً لدراسة اليمن في القرن الرابع الهجري من الناحية الطبوغرافية والاقتصادية والبشرية. وإن هذا الجهد العظيم لا يمكن أن يتوفر عليه في الوقت الحاضر إلا فريق متكامل من الجغرافيين من ذوي الاختصاصات المتنوعة.

المراجـع:

1. الحسن بن أحمد الهمداني: "صفة جزيرة العرب" تحقيق محمد علي الأكوع، مركز البحوث والدراسات. اليمن- صنعاء.
2. شاكر خصباك: "تطور الفكر الجغرافي" الكويت 1986م.
3. شاكر خصباك: "في الجغرافية العربية – بغداد 1975م.
4. شاكر خصباك: الجغرافية عند العرب – بيروت 1984م.
5. اغناطيوس كراتشكوفسكي "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، ترجمة صلاح الـــدين هاشـــم، الجـــزء الأول- القاهرة 1961م.